

ثقافة المتنبي

بقلم علي النجدي ناصف

مفتش المعارف بملوى

لما ترعرع المتنبي ، واشتد عوده ، دفعه أبوه إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ؛ فتعلم فيه دروس العربية شعرا ولغة وإعرابا (١) . وليس في الكتب التي بين أيدينا ما يشير إلى أنه حفظ القرآن الكريم ، بل إن في بعضها ما يساعد على ترجيح أنه لم يكن يحفظه ، ولا ينشط لقراءته . حدث علي بن حمزة البصري أنه ابتلى من المتنبي خصالا بعضها ذميم ، والآخر حميد ؛ فمن خصاله الذميمة أنه لم يكن يصلي ، ولا يقرأ القرآن (٢) .

نعم ، في غير موضع من شعره إشارات إلى بعض قصص القرآن : مثل قوله :

لَوْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ - صِرْنَ شَمُوسًا
أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرَ سَيْفِهِ فِي يَوْمٍ مَعَرَكَه - لَأَغْيَا عَيْسَى
أَوْ كَانَ لُجُجُ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ مَا انْشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى
وقوله :

لِمَنْ مَالٌ تُمَزَّقُهُ الْعَطَايَا وَيُشْرَكَ فِي رَغَائِبِهِ الْأَنَامُ؟
وَلَا نَدْعُوكَ صَاحِبَهُ قَرَضَى لِأَنَّ بِصُحْبَةِ يَجِبُ الدِّمَامُ
تُحَايِدُهُ كَأَنَّكَ سَامِرِيٌّ تُصَافِحُهُ يَدٌ فِيهَا جُذَامُ

(١) خزانة الادب : ٢ : ٣٠٣ (٢) الصبح المتنبي : ١ : ٧٧ بتصرف .

(٢ - صحيفة دار العلوم)

وقوله :

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِي مَسَامِعِهِ قَمِيصٌ يُوسُفُ فِي أَجْفَانٍ يَعْقُوبُ
ولكن ذلك لا ينهض وحده دليلا على حفظه القرآن ، فقد يكون كل ما قاله
في هذا الباب مجرد أثر من آثار ثقافته ودراسته ، بل من آثار بيئته الخاصة (١)
ونشأته الإسلامية ليس غير .

وبعد أن استوفى حظه من الكتاب ، خرج إلى البادية ، فلبث سنين في أهلها
يعيش بينهم ، ويأخذ عنهم اللغة والبيان (٢) . ولعله كان يعنى منازل بالبادية كلها أو
بعضها في قوله :

دَرَّ دَرُّ الصَّبَا ! أَيَّامَ تَجْرِ
رِ ذِيُولِي بِدَارِ (أَثْلَةٍ) ، عُوْدِي
وقوله :

تَذَكَّرْتُ مَكَيْنَ (الْعَذِيبِ وَبَارِقِ) تَجَرَّ عَوَالِينَا ، وَتَجَرَّى السَّوَابِقِ
وَصُحْبَةَ قَوْمٍ يَذْجَحُونَ قَنِصَهُمْ بِفَضْلَةٍ مَا قَدْ كَسَرُوا فِي الْمَفَارِقِ
وَلَيْلًا تَوَسَّدْنَا (الثَّوِيَّةَ) تَحْتَهُ كَانَ ثَرَاهَا عَنَبٌ فِي الْمَرَاْفِقِ
فإذا صح ذلك يكون الشاعر لم يعن في البادية ؛ لأن هذه الأماكن غير بعيدة
من الكوفة ، فدار أثلة ، والعذيب ، وبارق مواضع بظاهر الكوفة . وبين الثوية
والكوفة ثلاثة أميال (٣) .

وكان وهو في الكوفة يغشى مجالس العلماء والأدباء ، ويختلف إلى الوراقين ،
يروى نفسه الظامئة ، ويستوفى حظه من الثقافة والتهديب . ولنا نعرف من
أساتذته فيها إلا أستاذين اثنين : حدث البغدادي عن أحدهما ، قال : كان المتنبي

(١) كانت جدته نقية سالحة ، ويظهر أنها كانت تقرأ ، كما يفهم من قوله :

تعجب من لفظي وخطي كأنما * ترى بحروف السطر أغربة عصما

(٢) الصبح النبى : ٦ : ١ (٣) شرح العكبرى : ١ : ١٩٤ : ١٠ : ٤٣٦

في صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة ، من المتفلسفة ، فهو سه وأضله كما ضل^(١) وقد بحث طويلا عن أبي الفضل المذكور ، مستثيرا بما ذكر البغدادي من سماته ، فلم أعثر له على عين ولا أثر .

وأما الآخر فأبو الحسن ، المعروف بالناثي الأصغر ، أحد الشعراء المصنفين . وقد حدث عن نفسه ، قال : كنت بالكوفة سنة ٣٢٥ ، وأنا أملئ شعري في المسجد الجامع بها ، والناس يكتبون عني . وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم ، وهو بعد لم يعرف ، ولم يلقب بالمتنبي ، فأملت القصيدة التي أولها :

بِأَلِ مُحَمَّدٍ عُرِفَ الصَّوَابُ وَفِي آيَاتِهِمْ نَزَلَ الْكِتَابُ
وقلت فيها :

كَأَنَّ سِنَانَ ذَابِلِهِ ضَمِيرٌ فَلَيْسَ عَنِ الْقُلُوبِ لَهُ ذَهَابُ
وَصَارِمُهُ كَبِيعَتِهِ بِجَحْمٍ مَقَاصِدُهَا مِنْ الْخَلْقِ الرَّقَابُ^(٢)

فلحنته يكتب هذين البيتين ، ومنهما أخذ ما أنشدته وفي الآن من قوله :

كَأَنَّ الْهَامَ فِي الْهَيْجَا عَيُونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رُقَادٍ
وَقَدْ صُنَّتِ الْأَسِنَّةُ مِنْ هُمُومٍ فَمَا يَخْطِرُنَ إِلَّا فِي فُؤَادٍ^(٣)

وروى أبو الحسن العلوي أن وراقا كان يجلس إليه المتنبي ، قال : ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان ، فقلت له : وكيف ؟ فقال : كان اليوم عندي ، وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعي (سماه الوراق ، ونسبه أبو الحسن) يكون نحو ثلاثين ورقة ؛ لبيعه ، قال : فأخذ ينظر فيه طويلا ، فقال له الرجل : يا هذا ، أريد بيعه ، وقد قطعني عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه من هذه المدة فبيعه . فقال له : إن كنت حفظته فما لي عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب . قال : فأخذت الدفتر من يده ، فأقبل يتلوه على إلى آخره ، ثم استلبه فجعله في كفه ، وقام ،

(١) خزائن الادب : ٢ : ٣٠٦ (٢) خم : مكان

(٣) معجم الادبا : ٥ : ٢٣٩ و ٢٤٠ -

فعلق به صاحبه ، وطالبه بالثمن ، فقال : ما إلى ذلك سبيل ؛ قد وهبته لى . قال :
فتعناه منه ، وقتلناه له : أنت شرطت على نفسك هذا للغلام . فتركه عليه (١) .

وتعد هذه النادرة من أعدل نوادر الأذكياء ، وأدخلها فى باب المعقول ،
إذا قيسست بنظائرها ، مما يروى عن أمثال عبد الله بن عباس ، وبديع الزمان
المهمذاني ، وأبي العلاء المعرى ، وغيرهم من الأذكياء المشهورين . وهى على أى حال
دليل على أن الغلام كان ألمعيا لقينا ، فإن الناس أخرى ألا يعزوا وقائعها إليه
إلا إذا آنسوا منه سرعة الحفظ ، وصحة القريحة

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا حتى يروا عنده آثار إحسان
وفى بلاد الشام خرج المتنبي إلى البادية أيضا ، فشافه الأعراب ، وبلغ
غايته من اللغة والبيان . وكانت اللغة يومئذ لا تزال صحيحة فى البادية ، وكان
علماء اللغة يفتنمون قدوم الفصحاء من أهلها ليخاوروهم فى أساليبها ، ويستأنسوا
بسليقتهم فى تقرير قواعدها ، واستبانة الصواب فيما استبهم من مسائلها (٢) .
وكان المتنبي محبا للقراءة ، مشغوبا بالكتب : يجمعها ، ويحافظ عليها . حدث
وكيل داره بحلب ، قال : كان المتنبي يقبل على دفاتره كل ليلة للدرس والقراءة .
وقد لا يأتى إلى فراشه إلا بعد منتصف الليل (٣) . وليس ذلك بكثير ولا مستغرب
من الذى يقول :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجُ سَابِجٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

وقال أبو نصر الجليل فى قصة مقتله : . . . وافانى المتنبي ، ومعه بغال موقرة
بكل شيء من الذهب والفضة والطيب والتجملات النفيسة ، والكتب الثمينة
والآلات . . . وكان أكثر إشفاقه على دفاتره . لأنه كان قد انتخبها ، وأحكمها قراءة
وتصحيحا (٤) . . .

(١) تاريخ بغداد : ٤ : ١٠٣ (٢) وفيات الأعيان : ١ : ٦٣٥ ، ومعجم
الأدباء : ٥ : ٢٨ (٣) الصبح المنى : ١ : ٨٧٩ ، بصرف (٤) الصبح
المنى : ١ : ٢٣٥

وصدق أبو نصر ، فقد رأينا ابنه محسدا يفلت وحده من مقتلة أبيه ، ثم لا يكاد يذكر كتبه . ويتمثل له مبلغ حرصه عليها . حتى ينقلب راجعا في غير روية ولا وعى ، لعله يستنقذها ، فيقتل دونها مع المقتولين .

وقال صاحب إيضاح المشكل : « وكان المتنبي يحفظ ديوانى الطائيين ، ويستصحبهما في أسفاره . . فلما قتل توزعت دفاتره فوقع ديوان البحترى إلى بعض من درس على ، ، وذكّر أنه رأى خط المتنبي وتصحيحه فيه (١) .

وقال ابن خلكان في ترجمة ابن الرومي . . . وكان شعره غير مرتب ، ورواه عنه المتنبي ، ثم عمله أبو بكر الصولي ، ورتبه على الحروف ، وجمعه أبو الطيب (٢) . . وهؤلاء الشعراء الثلاثة - كما لا يخفى - من أبعد شعراء العربية صيتا ، وأزكا هم قريحة ، وأكرمهم تناجا ، وأبرعهم فنا . وما منهم إلا صاحب شأو بعيد ، هو فيه الفارس المجلى ، ومبتدع طريقة في صناعة الشعر ، يتفرد وحده بالإحسان فيها إلى الغاية القصوى فجعله شعرهم تعد بحق خلاصة الشعر العربي كله ، وأحفل معارضه بآثار البراعة والنبوغ ؛ وبحسبك أن يسهم فيه حبيب بفنه الرائع ، وفكره الدقيق ، وحكمه العالية ؛ والوليد بخياله السرى ، وتصويره الأنيق ، ولفظه الرشيق ؛ وابن الرومي بمعانيه المخترعة ، وتوليده العجيب ، واستقصائه البالغ . ولم تكن هذه الجملة على ضخامة قدرها وجلالة خطرها - كل ما يحفظ المتنبي من الشعر ، لأن الرجل - كما علمت - كان سريع الحفظ ، مشغوقا بالقراءة والتحصيل وسترى فيما نسوقه إليك من أنباء تعلمه ومناظراته أنه كان يحفظ لأبي نواس ، وكثير ، والعدواني ، ونذكر هنا أنه كان يكبر شعراء الجاهلية ، ويرى في أشعارهم المثل الأعلى للشعر قال :

لَا تَجْسِرُ الْفُصَحَاءُ تُنْشِدُ هَاهُنَا يَتِيمًا ، وَلَسَكُنِّي الْهَزْبُ الْبَاسِلُ
مَا نَالَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كُلُّهُمْ شِعْرِي ، وَلَا سَمِعَتْ بِسِحْرِي بَابِلُ

وقال يشيد بفضل النابغة :

سَمِعْتُكَ مُنْشِدًا يَلْتَنِي زِيَادُ نَشِيدًا مِثْلَ مُنْشِدِهِ كَرِيمًا
فَمَا أَنْكَرْتُ مَوْضِعَهُ وَلَكِنْ غَبَطْتُ بِذَلِكَ أَعْظَمَهُ الرَّمِيمَا

فلا جرم أنه كان يحفظ لشعراء الجاهلية أيضا؛ وأنه كما حفظ للعدوان لم يفته أن يحفظ لامرئ القيس والنابغة وزهير ومن اليهم من شعراء الجاهلية المقدمين . على أننا نلح في أنحاء من شعره شواهد غير قليلة تدبث هنا وهناك ، وتشير إلى أنه كان يحفظ لجمع كبير من الشعراء في كل عصر من العصور .

ثم إنه كان في كل بلد رجل إليه يلتقى بالعلماء للدرس والمناظرة ، ويقصده الطلاب للرواية والأخذ . ففي حلب لقي طائفة جليلة من أعيان العلماء والأدباء ؛ كابن خالويه ، والفارسي ، وابن جني ، وأبي فراس ، والرقاء ، والنامي ، وغيرهم . ووقعت له مع كثير منهم مجالس ومجاولات في مسائل شتى في العلم والأدب . روى الطرائفي أن ابن جني كان يحضر الكثير عند المتنبي في حلب ، وينظره في شيء من النحو (١)

وحدث العكبري أن المتنبي حضر يوما مجلس سيف الدولة ، وبين يديه ترنج وطلع ، وهو يمتحن الفرسان ، فقال لابن شيخ المصيصية (٢) : لا تتوهم هذا للشرب ، فارتجل المتنبي ثلاثة أبيات ، مطلعها :

شَدِيدُ الْبُعْدِ مِنْ شُرْبِ الشَّمُولِ تَرْجُجُ الْهِنْدُ ، أَوْ طَلَعُ النَّخِيلِ
فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ ابْنُ خَالَوَيْهِ تَرْجُجُ ، وَقَالَ : الْمَعْرُوفُ أَتَرْجُ ، فَاسْتَشْهَدَ أَبُو الطَّيِّبِ
برواية أبي زيد أنها مقولان (٣) .

وقال صاحب وفيات الأعيان في ترجمة الفارسي : وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، وكان قدومه عليه في سنة ٣٤١ ، وجرت بينه وبين أبي

(١) معجم الأدباء : ٢٥ : ٥ (٢) مدينة على ساحل البحر الرومي ، تجاه طرسوس (وفيات الأعيان : ١ : ٤٧) (٣) التبيان : ٢ : ٧٥ .

الطيب المتنبي مجالس (١). وقال في ترجمة النامي: ... وله مع المتنبي وقائع ومعارضات في الإنشاء... (٢).

وحدث صاحب الصبح المتنبي، قال: حضر المتنبي مجلس أبي أحمد بن نصر البازيار، وزير سيف الدولة، وهناك أبو عبد الله بن خالويه النحوي، قماريا في أشجع السلي، وأبي نواس البصري، فقال ابن خالويه: أشجع أشعر، إذ قال في هرون الرشيد، رحمه الله تعالى:

وعلى عدوك يابن عم محمد رصدان: ضوء الصبح والابلام
فإذا تنبه رعته، وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

فقال المتنبي: لأبي نواس ما هو أحسن في بني برمك، وهو:

لم يظلم الدهر إذ توالى فيهم مصيباته دراكا
كانوا يُجَيِّرون من يعادي منه، فعاداهم لذاكا (٣)

وفي مصر كان المتنبي يختلف إلى جامع عمرو، فيتسابق الناس إلى لقائه؛

لمساجلته، أو الأخذ عنه، سواء في ذلك الوطني المقيم، والأجنبي العابر.

حدث ياقوت في معجمه، قال: أخبر بعض العلية أن الخطيب أبا الوليد بن عسال حج، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي، واستشرف، ورأى أن لقيته فائدة يكتسبها، وحلة نخر لا يحتسبها، فصار إليه، فوجده في مسجد عمرو بن العاص، ففاوضه قليلا، ثم قال: ألا أنشدني للمليح الأندلس، يعني ابن عبد ربّه، فأنشده:

بالؤلؤا يسبي العقول أنيقا ورشاً بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقا
يامن تقطع خصره من ردفه مابال قلبك لا يكون رقيقا؟

(١) وفيات الأعيان: ١: ١٦٣ (٢) وفيات الأعيان: ١: ٤٦

(٣) الصبح المتنبي: ١: ٦٣، و ٦٤

فلما أكمل إنشاده ، استعاده منه ، ثم صفق يديه ، وقال : يا بن عبد ربه ،
لقد يأتيك العراق حبوا (١) . وقال أبو الحسن المهلبى التحوى : وقع بينى وبين
المتنبى كلام فى قول العدوانى :

يا عمرو ، إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

وذلك أن المتنبى قال : إن الناس يغلطون فى هذا البيت ، والصواب اشقونى ،
من شقات رأسه بالمشقة ، وهو المشط . قال المهلبى : فقلت له : أخطأت من
وجوه : أحدها أنه لم يرو كذلك ، والآخر أنه يقال : شقات بالهمزة ، وأيضاً
فإنى أظنك لا تعرف الخبر فيه ، وما كانت العرب تقول فى الهامة : إنها إذا لم
يثأر بصاحبها لاتزال تقول : اسقونى ، فإذا تأروا به سكن كأنه شرب الدم (٢)
ونحن نستبعد أن يقع المتنبى فى هذا الخطأ البين ؛ لأن خبر الهامة عند عرب
الجاهلية شائع مشهور ، والرجل لاشك كان واسع الرواية ، خبيراً بمواقع الكلام .
ولما ورد بغداد كان الطلاب يؤمنونه حيث يقيم ، فيروون شعره ، ويقرءونه
عليه (٣) . وفيها وقعت المذاكرة المشهورة بينه وبين الحاتمى (٤) . ووقعت كذلك
مناظرة بينه وبين أبى الفرج الأصفهاني ، بمجلس المهلبى ، فى قول كثير :

(١) معجم الأدباء : ٧١ : ٢ (٢) مات المهلبى بمصر سنة ٣٨٥ . معجم الادباء :
٨٢ ، ٨١ : ٥ (٣) تاريخ بغداد : ١٠٢ : ٤ (٤) خلاصتها أن المتنبى حين قدم
بغداد ، كان يتعاضد على أدبائها ، ولا يجروأحد منهم على مقارعة ، أو التغير عليه .
فاستاء معز الدولة ووزيره المهلبى ، ورأى الحاتمى أن لا مناص له من مساجلته ،
والمغامرة فيما اهتبه غيره ، ذباداً عن كرامته ، وكرامة إخوانه ، والتماساً لرضا الامير
ووزيره ، فقصده إلى المتنبى ، فلم يحسن المتنبى لقاءه ، فاغتاط الحاتمى ، وأخذه باللوم
أخذاً عنيفاً ، ثم أقبل على شعره ينقده ، ويكشف عن معايبه . فعرض المتنبى أمثلة من شعره
المستجاد واقتخر بها ، فاتهمه الحاتمى بسرقتها ودل على المأخذ التى نقل عنها ، ثم انتقلا
إلى محاوراة قصيرة فى اللغة ، لم يلبثا بعدها أن تصالفا . هذا بحملها كما يقول الحاتمى ، وترأها
مبسوطة فى : معجم الادباء : ٦ : ٥٠٤ - ٥١٨ ، والصبح المتنبى : ١ : ١٤٤ - ١٧٣
وفيات الاعيان : ١ : ٦٤٦

سقى الله أمواها عرفت مكانها جرأماً، وملكوماً، وبذر، فالغمرأ
أنشدوه جرأماً بالميم، فقال المتنبي: هو جرأبا. وهذه أمكنة قتلها علماً،
وإنما الخطأ وقع من النقلة، فأنكره أبو الفرج. ورواية سيوييه، ومحمد بن
كيسان النحوى (جرأبا) بالباء، كما يقول المتنبي (١).

وفي أرجان، قرأ عليه ابن العميد ديوان اللغة الذى جمعه، وكان يتعجب من
حفظه، وغزارة علمه (٢).

وفي شيراز كان الأدباء يغشون مجلسه للدرس والمناظرة، وقراءة شعره
عليه، أو نقله عنه (٣). حدث الربيعي، قال: كنت يوماً عند المتنبي بشيراز،
ف قيل له: أبو على الفارسى بالباب، وكانت تأكدت بينهما المودة. قال: بادروا
إليه، فأنزله. فدخل أبو على، وأنا جالس عنده. فقال: يا أبا الحسن. خذ
هذا الجزء، وأعطاني جزءاً من كتاب التذكرة، وقال: اكتب عن الشيخ
البيتين اللذين ذكرتك بهما، وهما:

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَّا وَمَشَايِخِ
كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّمُوا مُرْدُ

ثِقَالٍ إِذَا لَاقَوْا، خِفَافٍ إِذَا دُعُوا،
كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا، قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا (٤)

هذا وصف ثقافة المتنبي، كما رأيناها بمطارحها من بطون الكتب. ولا يسعنا
إلا الإقرار بأنه وصف قاصر، لا يسلم من النقص في بعض نواحيه. فليس فيه
مثلاً إحصاء للعلوم والفنون التى درسها. أو ألم بأطراف منها، ولو أنه من المفهوم
أن رجلاً كالمتنبي جد حقيق ألا يفوته شيء من أنواع العلوم والفنون التى ازدهرت
فى عصره، يأخذ منها بحظوظ قد تتفاوت بتفاوت الحاجة والملابسات.

فلنرجع إذا إلى شعره، نلتمس فيه سبباً لهذه الحاجة؛ إنه بها كفى. فإذا
نحن أخذنا فيه من الناحية اللغوية رأينا أكثره نغم الألفاظ. متين التراكيب،
حكم الأساليب، ومن ذلك قوله:

(١) خزانة الادب: ٢: ٣١٠، ومعجم الادباء: ٦: ٤١٨

(٢) خزانة الادب: ٢: ٣١١ (٣) الصبح المتنبي: ١: ٩٠ (٤) الصبح

المتنبي: ١: ٢١٢، ٢١٣

أَطَاعِنُ خَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ
وَحِيدًا. وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِيَ الصَّبْرُ ؟
وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلَّ يَوْمٍ سَلَامَتِي
وَمَا ثَبَّتَتْ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ
تَمَرَّسْتُ بِالْآفَاتِ حَتَّى تَرَ كَتْمَهَا
تَقُولُ: أَمَاتَ الْمَوْتُ ، أَمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْآتِي كَأَنِّي لِي
سِوَى مُهْجَتِي ، أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَتْرُ
دَحِ النَّفْسِ تَأْخُذُ وَسَعَمَهَا قَبْلَ يَبْنِهَا
فَقَفَّرَتْ جَارَانِ دَارُهَا الْعُمُرُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقًا وَقَيْنَةً
فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ ، وَالْفَتْكَةُ الْبَكْرُ
وَتَضْرِبُ أَغْنَاكَ الْمُلُوكُ ، وَأَنْ تُرَى
لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
وَتَرَكُوكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا
تَدَاوُلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أُنْمَلُهُ الْعَشْرُ

ونصادف في كثير من قصائده ، ولا سيما الأراجيز - غرابة فاشية ، تتحول
بعض الأحيان إلى معازلة جافية ، وترخص في اصطناع الحوشى النافر ، ولو لم

يكن ثمة حاجة داعية ، ولا ضرورة ملجئة . قال يصف فرسا تأخر الكلاء عنه :
بوقوع الثلج :

كَأَنَّمَا الطُّخْرُورُ بَاغِي آبِقِ يَأْكُلُ مِنْ نَبْتٍ قَصِيرٍ لَاصِقِ ^(١)
كَقَشْرِكَ الْحَبْرِ مِنَ الْمَهَارِقِ أَرُودُهُ مِنْهُ بِكَالسُّوْدَانِقِ ^(٢)
بِمُطْلَقِ الْيَمْنَى ، طَوِيلِ الْفَائِقِ عَبْلِ الشَّوَى ، مُقَارِبِ الْمَرَاثِقِ ^(٣)
رَحْبِ اللَّبَانِ ، نَائِهِ الطَّرَائِقِ ذِي مَنْخَرٍ رَحْبٍ ، وَإِطْلٍ لَاحِقِ ^(٤)
مَحْجَلٍ ، نَهْدٍ ، كُمَيْتٍ ، زَاهِقِ شَادِخَةٍ غُرَّتُهُ ، كَالشَّارِقِ ^(٥)
كَأَنَّهَا مِنْ لَوْنِهِ فِي بَارِقِ بَاقٍ عَلَى الْبَوْغَاءِ ، وَالشَّقَائِقِ ^(٦)
وَالْأَبْرَدَيْنِ ، وَالْهَجِيرِ الْمَاحِقِ لِلْفَارِسِ الرَّاحِضِ ، مِنْهُ الْوَأَثِقِ ^(٧)

خَوْفُ الْجَبَانِ فِي فُؤَادِ الْمَاشِقِ

كَأَنَّهُ فِي رَيْدٍ طَوْدٍ شَاهِقٍ يَشْأَى إِلَى الْمَسْمَعِ صَوْتِ النَّاطِقِ ^(٨)
وقال في المدح :

جَفَخْتُ - وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا - بِهِمْ

شِيمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَعْرَّ دَلَائِلُ ^(٩)

- (١) الطخرو : اسم الفرس (٢) المهارق : جمع مهرق : الصحيفة ، معرب .
(٣) مطلق اليمنى : يريد أن لونها يخالف قوائمه الثلاث . الفائق : مفصل رأس العنق
(٤) نائه الطرائق : على الاخلاق شريفها . إطل لاحق : خصر ضامر .
(٥) زاهق : متوسط بين السمين والمهزول ، الغرة الشادخة : التي ملأت الوجه
ولم تشتمل على العينين . (٦) البوغاء : التراب : الشقائق : جمع شقيقة : الارض
فيها رمل وحصى . (٧) الأبردان : الغداة والعشي . وخوف مبتدأ خبره للفارس
(٨) الريد : حرف الجبل . يشأى : يسبق (٩) جفخت : تكبرت ونفرت .
وبهم متعلق بجفخت ، وشيم فاعله .

وقال في الغزل:

أَرَكَايِبَ الْأَحْبَابِ ، إِنَّ الْأَذْمَعَ

تَطْسُ الْخُدُودَ ، كَمَا تَطْسُنَ الْيَرَمَعَا^(١)

وقال فيه أيضا:

لَوْ عَدَا عَنْكَ غَيْرَ هَجْرِكَ بَعْدَ
لَأَرَارَ الرَّسِيمُ مَخَّ الْمَنَاقِ^(٢)

وقال في الرثاء:

وَلَى وَكُلِّ مُخَالِمٍ وَمُنَادِمٍ بَعْدَ اللَّزُومِ - مُشِيعٌ وَمُودِعٌ^(٣)

ونحن فيما أسلفنا من الشواهد لم نؤثر باختيارها قصيدة على أخرى ، ولم نرد بإيرادها توضيح غامض ، أو إثبات مشكوك فيه ، فحيثما تقرأ في ديوانه تلقى الدلائل متظاهرة ، تشهد بسعة روايته . وغزارة محفوظه ، إلى الغاية التي لا يدركها إلا قليل . وإنما أردنا مجرد المشاكلة ، ورعاية المساواة بين النظائر في أجزاء شواهدنا جهد ما نستطيع .

وإذا أخذت في شعره من ناحية الدلالة على مبلغ صاحبه من العلوم اللسانية والفقهية - تيننت ولعا بصياغة المشتقات ، وبصرا بأوزانها ومواضع استعمالها ، لا يخطئ جادة الصواب ، كقوله في المدح:

أَعَزُّ مُغَالِبٍ كَفًّا وَسَيْفًا وَمَقْدَرَةً ، وَمَحْمِيَّةً ، وَآلًا .

وَأَشْرَفُ فَآخِرِ نَفْسًا ، وَقَوْمًا وَأَكْرَمُ مُنْتَمٍ عَمَّا ، وَخَالًا

يَكُونُ أَحَقُّ إِثْنًا عَلَيْهِ عَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِيهَا مُحَالًا

وَيَبْقَى ضِعْفُ مَا قَدْ قِيلَ فِيهِ إِذَا لَمْ يَتْرِكْ أَحَدٌ مَقَالًا

(١) تطس: تدق اليرمع: حجارة بيض صغار ، رخوة . (٢) أراد: أذاب .

المناقى: جمع منقية ، وهى السمينة فى عظامها نقي ، وهو الخ . (٣) المخالم المصادق .

فَيَا بَنَ الطَّاعِنِينَ بِكُلِّ عَضْبٍ مِنْ الْعَرَبِ الْأَسَافِلِ وَالْقِلَالَا
أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُّوا بِذِمِّي وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالَا ؟
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءُ الزُّلَالَا !

ورأيت إحاطة بارة بقواعد النحو والصرف، ولباقة بينة في اصطناع القواعد والمصطلحات الفنية، من نحوية كقوله:

تُقَيِّتُ اللَّيَالِي كُلَّ شَيْءٍ أَخَذَتْهُ وَهِنَّ لِمَا يَأْخُذْنَ مِنْكَ غَوَارِمُ
إِذَا كَانَ مَا تُنَوِّيه فِعْلًا مُضَارِعًا مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَارِمُ
وقوله:

يَتَفَرَّغُ الْجَبَّارُ مِنْ بَغَاتِهِ فَيَظِلُّ فِي خَلَوَاتِهِ مُتَكَفِّنَا
أَمْضَى إِرَادَتَهُ، فَسَوْفَ لَهُ قَدٌّ، وَاسْتَقْرَبَ الْأَقْصَى، فَمَّ لَهُ هُنَا
وقوله:

وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جَيْلٍ سَوَاسِيَةٍ شَرٌّ عَلَى الْحُرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى بَدَنِ
حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خَلِقٌ تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِفْهَامِهَا بَعْنِ
وصرفية، كقوله:

فَعَاشَا عِيشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا بِضَوْئِهِمَا ، وَلَا يَتَحَاسَدَانِ
وَلَا مَلِكًا سِوَى مُلِكِ الْأَعَادِي وَلَا وَرَثًا سِوَى مَنْ يَقْتُلَانِ
وَكَانَ ابْنًا عَدُوٍّ كَأَثَرَاهُ لَهُ يَأْيُ حُرُوفِ أَنْيْسِيَانِ^(١)

(١) أنيسيان: مصغر إنسان. يريد: عدو يكاثرك بابنيه، كأنيسيان: زادته الياء ان حروفاً، وصغرتة معنى.

وخطية كقوله :

كَمْ وَقْفَةٌ سَجَرَتْكَ شَوْقًا بَعْدَ مَا غَرَى الرَّقِيبُ بِنَا، وَلَجَّ الْعَاذِلُ
دُونَ التَّعَانُقِ نَاحِلِينَ كَشَكَلَتِي نَضِبَ، أَدَقَّهُمَا، وَضَمَّ الشَّاكِلُ
وقوله :

جَرَى الْخُلْفُ الْإِفِيكَ، أَنْكَ وَاحِدٌ وَأَنْكَ لَيْتُ، وَالْمُلُوكُ ذِيَابُ
وَأَنْكَ إِنْ قُوسِتْ، صَحَّفَ قَارِي ذِيَابًا، فَلَمْ يُخْطِ، فَقَالَ : ذُبَابُ
وقفية ، كقوله :

بَلَيْتُ بِلَى الْأَطْلَالِ ، إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا
وُقُوفَ شَحِيحٍ ، ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهُ
كَثِيْبًا ، تَوَقَّانِي الْعَوَاذِلُ فِي الْهَوَى
كَمَا يَتَوَقَّى رِيضَ الْخَيْلِ حَازِمُهُ
فِي تَعَرِّمِ الْأُولَى مِنَ اللَّحْظِ مُهْجَتِي

بثانية ، وَالْمُتْلِفُ الشَّيْءَ غَارِمُهُ
وَأَنْتَ تَوْفِيقًا عَجِيْبًا فِي اسْتِخْدَامِ التَّعْلِيلَاتِ الْبَلَاغِيَةِ ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى
بُلُوغِ غَايَةِ الْإِجَادَةِ فِي الْاِفْتِنَانِ ، وَحَسَنِ التَّأْثِيرِ ، كَقَوْلِهِ :

نَحْنُ أَدْرَى ، وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ أَطْوِيلُ طَرِيقُنَا ، أَمْ يَطْوُلُ ؟
وَكَثِيرٌ مِنَ السُّؤَالِ اشْتِيَاقُ وَكَثِيرٌ مِنْ رَدِّهِ تَعْلِيلُ
وقوله :

وَقَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً وَسِرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مَوْلَاهَا
وَمِنْ مَنَابِهِمْ بِرَاحَتِهِ بِأَمْرُهَا فِيهِمْ وَبَيْنَاهَا

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدَ الدِّ دَوْلَةَ فَنَّا خُسْرُو شَهْنَشَاهَا
 أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَرْنَاهَا
 وأما إذا أخذت فيه من ناحية الاستدلال على مقدار حظه من سائر العلوم ،
 فسترى فلسفة عالية في مثل قوله ، يحلل بعض أخلاق سيف الدولة ، ويلتمس
 الأسباب السياسية والنفسية لتعدد بعض قبائل العرب وخروجهم عليه :
 وَفِيكَ - إِذَا جَنَى الْجَانِي - أَنَاةٌ تُظَنُّ كَرَامَةً ، وَهِيَ اخْتِقَارُ
 وَأَخْذُ لِلْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي بِضَبْطٍ لَمْ تَعُوْذْهُ نِزَارُ
 تَشَمُّهُ شَمِيمَ الْوَحْشِ إِنْسَاءً وَتُشْكِرُهُ ، فَيَعْمُرُوهَا نِقَارُ
 وَمَا انْقَادَتْ لِعَيْرِكَ فِي زَمَانٍ فَتَدْرِي : مَا الْمَقَادَةُ وَالصَّغَارُ ؟
 فَأَقْرَحَتْ الْمَقَاوِدُ ذِفْرِيَّهَا وَصَمَرَ خَدَّهَا هَذَا الْمِذَاوُ
 وقوله في فلسفة الموت :

إِنْفُ هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الْأَنْفُسِ : أَنَّ الْجِمَامَ مَرُّ الْمَذَاقِ
 وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزُ وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ
 وقوله ، وقد ألم بفعل الوهم ، وقوة تأثيره في النفس :

وَتَقْنًا بَأَنْ تُعْطَى ، فَلَوْلَمْ تَجِدْنَا لَخَلْنَاكَ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ قُوَّةِ الْوَهْمِ
 وترى علما بقواعد الديانات ، وأسرار المذاهب في مثل قوله عن المجوسية :

يَا أُخْتِ مُعْتَنِقِ الْفَوَارِسِ فِي الْوَعَى

لَأَخُوكَ ثُمَّ أَرْقُ مِنْكَ وَأَرْحَمُ

يَرْتَوِ إِلَيْكَ مَعَ الْعَقَافِ وَعِنْدَهُ

أَنَّ الْمَجُوسَ تُصِيبُ فِيمَا تَحْكُمُ

وقوله عن المانوية :

وَكَمْ لظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدِي مِنْ يَدٍ تُخْبِرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

وقوله يشير إلى الخلاف بين منكرى البعث ، والمؤمنين به في خلود الروح :

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ

إِلَّا عَلَى شَجَبٍ ، وَأُخْلِفَ فِي الشَّجَبِ

فَقِيلَ تَخَلَّصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً

وَقِيلَ تَشْرِكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ

وقال يذكر الدهريين ، والمعطلة ، والقائلين بقدم العالم :

أَلَا فَتَى يُورِدُ الْهِنْدِيَّ هَامَتَهُ

كَيْمَا تَزُولَ شُكُوكُ النَّاسِ وَالتَّهَمُ

فَأَنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِي الْقُلُوبَ بِهَا

مَنْ دِينُهُ الدَّهْرُ ، وَالتَّعْطِيلُ ، وَالْقَدَمُ

وقوله يذكر النواصب :

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إِلَّا حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

وترى علما بالتنجيم ، في مثل قوله ، يذكر بعض الكواكب ، ويشير إلى

دلالة كل منها ، في رأى قدامى المنجمين :

وَإِنْ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ تَرَانِي فَتَعْدِلَ بِي أَقَلَّ مِنَ الْهَبَاءِ

وَتُنْكِرَ مَوْتَهُمْ ، وَأَنَا سُهَيْلٌ طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلَادِ الزَّيْنَاءِ

وقوله :

أَنَا صَخْرَةُ الْوَادِي إِذَا مَازَوْحَتِ وَإِذَا نَطَقَتْ فَأَنَّنِي الْجَوْزَاءِ

وقوله:

زُحِّلْ - عَلَى أَنَّ الْكُورَ كَيْتَ قَوْمُهُ -
لَوْ كَانَ مِنْكَ لَكَانَ أَكْرَمَ مَعْشَرًا

وقوله:

تَفَى وَقَعَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ بِرُمُوحِهِ
وَلَمْ يَخْشَ وَقَعَ النِّجَمِ وَالِدَ بَرَّانِ

وعلمًا بالجغرافية في قوله:

كَأَلْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا
جُودًا ، وَيَعْمَتُ لِلْبَعِيدِ سَحَابًا

وقوله:

تَكَسَّبُ الشَّمْسُ مِنْكَ النُّورَ طَالِعَةً

كَمَا تَكَسَّبَ مِنْهَا نُورَهَا الْقَمَرُ

والتاريخ في مثل قوله:

أَشْمَتَ الْخَلْفُ بِالشُّرَاةِ عِدَاهَا
وَشَفَى رَبَّ فَارِسٍ مِنْ إِيَادِ (١)وَتَوَلَّى بَنَى الْبَزِيدِيَّ بِالْبُزْ
رَةِ حَتَّى تَمَزَّقُوا فِي الْبِلَادِوَمُلُوكًا كَأَمْسٍ فِي الْقُرْبِ مِنَّا
وَكَطَسَمٍ وَأَخْتَهَا ، فِي الْبِعَادِ

وقوله:

وَمِنْ قَوْلِ سَامٍ - لَوْ رَأَى - لِنَسْلِهِ

فَدَى ابْنَ أَخِي نَسْلِي ، وَنَفْسِي ، وَمَالِيَا .

والحساب في قوله:

وَلَقَيْتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ ، كَأَنَّمَا
رَدَّ إِلَهُهُ نَفْسَهُمْ وَالْأَغْصُرَا

(١) الشراة: الخوارج. سموا أنفسهم بذلك: يعنون أنهم اشترؤا أنفسهم من الله بالقتال.

تُسِقُوا لَنَا نَسَقَ الْحِسَابِ مُقَدَّمًا وَأَتَى (فَذَلِكَ) إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرًا (١)

والمنطق في مثل قوله ، وقد جاء ببعض ضروب الشكل الأول :

فِدَى لَكَ مَنْ يُقْصِرُ عَنْ مَدَاكَ فَلَا مَلِكٌ إِذَا ، إِلَّا فِدَاكَ

وَلَوْ قُلْنَا : فِدَى لَكَ مَنْ يُسَاوِي دَعَوَنَا بِالْبَقَاءِ لِمَنْ تَلَاكَ

وقوله كذلك :

إِذَا خَافَ مَلِكٌ مِنْ مَلِيكَ ، أَجْرَتَهُ وَسَيْفَكَ خَافُوا ، وَالْجَوَارَ تُسَامُ

وقوله ، وقد أخذ إخذ المناطقه ، بما أورد من الأدوات التي يكثر دورانها

في الاستدلال ، وإقامة البراهين :

الْيَوْمَ يَرْفَعُ مَلِكُ الرُّومِ نَظِيرَهُ لِأَنَّ عَفْوَكَ عَنْهُ عِنْدَهُ ظَفَرُ

وقوله :

مِنْ طَاعِنِي تُغَرِّ الرِّجَالِ جَا ذِرْ وَمِنْ الرَّمَاكِ دَمَالِجٌ وَخَلَاخِلُ

وَلِذَا ، اسْمُ أُعْطِيَةِ الْعُيُونِ جُفُونُهَا مِنْ أَنَّهَا عَمَلُ السُّيُوفِ عَوَامِلُ

وقوله :

ذِي الْعَمَالِي ، فَلْيُعْلُونُ مَنْ تَعَالَى هُكَذَا ، هُكَذَا ، وَإِلَّا فَلَا ، لَا

هذه بعض مظاهر ثقافة المتنبي ، كما تبدو في شعره ، ومنها نرى الرجل ضخم

المادة اللغوية ، مستفيض الرواية والحفظ . متبحراً في علوم العربية ، عالماً بالفلسفة

والتاريخ ، والجغرافية ، والفلك ، وأصول الديانات والمذاهب المختلفة ، إلى ما سوى

ذلك من أسباب الثقافة العالية لذلك العهد ، وما ظنك برجل تهيأ له فصاحة البادية

وثقافة الحضر ، وهو مع ذلك صحيح القريحة ، مستقيم الفطرة ، موصول القراءة

والدرس ؟

(١) يقول : سبقك الفضلاء في الزمن ، ثم جئت فكنت جماع فضلهم ؛ كالحساب :

تنسق أولاً تفاضيله ثم تجمع جملة واحدة

على أنه - وقد طوف في البلاد ، وتردد بين البوادي والحوضر - أتاحت له رؤية كثير من مشاهد الطبيعة الرائعة ، وتأتاج الحضارات المختلفة : رأى الصحراء وما فيها من رمال منبسطة ، وحصباء وحجارة منتثرة ، وكثبان وآكام جاثية ، ووهاد وأودية هابطة ، ووحوش تسنح . وزواحف تدب ، وسراب يلنع ، وريح ثور ، وحر يتوهج . وبرد يلسع ، وسما مجلوة الصفحة ، ساطعة الشمس ، متلألئة النجوم ، باهرة ضياء البدر . وأحس ما للصحراء من رهبة وجلال . وتأثر بما يغشاها من سذاجة وعبوس . ويلتمع في سمائها من وضاء وإشراق .

رأى الجبال تنعقد الثلوج على رموسها ، أو تنحدر سيولا على سفوحها ، ورأى الأبنية الضخام ، تقوم على قواعد الهندسة ، وتزين بالزخارف والتهاويل ، وتحتوى ضروبا من القماثل والتحف ، ورأى الأشجار الباسقة ، والمزارع المنسقة والبساتين الأنيفة ، والمياه الجارية .

ثم هو قد خالط أجناسا وطوائف ، وجالس الرؤساء والقواد والساسة ، وعرف ضروبا من العادات ، وألوانا من أساليب العيش ، إلى نحو ذلك ، مما يساعد على إيقاظ العواطف ، وتربية الذوق . وثقيف الذهن ، واتساع أفق المعارف . ودونك الآن طائفة من أقوال المنصفين من العلماء والنقاد فيه :

قال صاحب إيضاح المشكل : وجلة القول فيه أنه من حفاظ اللغة ، ورواة الشعر (١) وقال الخالديان : كان أبو الطيب المتنبي كثير الرواية ، جيد النقد (٢) وقال الفارسي : ما رأيت رجلا في معناه مثله (٣) . وقال ابن خلكان : . . واشتغل بفنون الأدب ، ومهر فيها . وكان من المكثرين من نقل اللغة ، والمطلعين على غريبها وحوشها ، ولا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل : إن الشيخ أبا علي الفارسي ، صاحب الإيضاح والتكملة . قال له يوما : كم لنا من الجروع على وزن فعلى ؟ فقال المتنبي في الحال : حجلي (٤) ،

(١) خزانة الادب : ٢ : ٣١٧ (٢) الصبح المنبي : ١ : ١٧٣

(٣) نزوة الالباء : ٣٧٢ (٤) واحده حجلة

وظرنى (١). قال الشيخ أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال ، على أن أجد
لهذين الجمعين ثالثا ، فلم أجد (٢) .

وهذه الأقوال - على صدقها - لا تتناول من ثقافة الشاعر إلا جانب الرواية
والحفظ . والمتنبى - كما تعلم - لم يكن راوية حافضا خصب ، فكان أولئك النقاد
لا يعينهم من ثقافة الأديب إلا الناحية اللغوية وحدها . أما غيرها فليس جديرا
أن يلتفت إليه عند تقدير الأديب ، وتحديد منزلته بين الأدباء . ولأمر ما ، عيب
على المتنبي أن يتعاطى الفلسفة في شعره ، فيحيد به عن المألوف الذى سببه القدماء .
وبعد ، فقد كان المتنبي نثر ، كما كان له شعر . وإنك لتتسهم في نثره روح
العبقرية الذى تجده في شعره . ويخيل إلى أنه لو تفرغ للنثر ، أو نزل له عن قسط
من عنايته وإقباله ، لكان بين الكتاب مثله بين الشعراء .

ومن نثره الفنى رسالته البليغة ، التى بعث بها إلى صديق كان يزوره ، وهو
مريض بمصر ، فلما أبل انقطع عنه . وهى :

وصلتني (وصلك الله) محتلا ، وقطعتني مبيلا ، فان رأيت ألا تحبب العلة
إلى ، ولا تسكدر الصحة على ، فعلت إن شاء الله (٣) .

وهى كما ترى - رسالة تجمع بين وضوح المعنى وسهولة اللفظ ، وتزدان
بحظ وافر من جمال الفن ، فى غير تعمل ولا استكراه ، وتبنى بالمراد كاملا مع
ما فى عبارتها من شدة الإيجاز .

وله كذلك عبارات مرتجلة ، تقسامى فى بلاغتها ، ورشاقة لفظها وإيجازه -
إلى مكاة الأمثال السائرة ، والتوقيعات الجامعة . فمن ذلك ، أنه لما دخل على عضد
الدولة لأول مرة ، قال : شكرت مطية حملتني إليك ، وأملا وقف بى عليك (٤) .
ولما انصرف عن المجلس أتبعه عضد الدولة بعض جلسائه ، وقال له : سله ، كيف
شاهد مجلسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم منا ؟ فكان جواب المتنبي عن جميع
ما سمع من ذلك : ما خدمت عيناى قلبى كاليوم (٥) .

على النجدي ناصف

(١) واحده ظربان ، لدوية كاهرة منتنة الرائحة (٢) وفيات الاعيان : ١ : ٤٤

(٣) المصدر نفسه (٤) خزانة الادب : ٢ : ٣١٤ (٥) الصبح المنبى : ١ : ٢٠٩